رواية

طه الكُوبْرَا

ثلاثية طه الكبرا

الجزء الثالث



محمد الملوكي

طه الكُوبْرَا

رواية

الجُزءُ الثَّالِث

محمد الملوكي

الحسابات الرسمية للكاتب



@ELMLLOUKI_OFF



elmllouki_off



El Mllouki Mohamed

قَبْلَ أَنْ تَقْرَأَ

هذه الحِكايةُ في ثَلاثةِ أجزاء، يَحكي كُلَّ جُزءٍ منها صَوتٌ واحِدٌ من ثَلاثةِ أصوات:

الجُزءُ الأوَّلُ: «المُورْفِين» — بلِسانِ صَديقِه، الذي شَهِدَ الحِكايةَ وغَنَّاها.

الجُزءُ الثَّاني: «نَوَالُ الطَّنْجَاوِيَّة» — بلِسانِ المَرأةِ التي عَرَفَتْه صَيفاً واحِداً وحَمَلَتْه عُمراً.

الجُزءُ الثَّالِثُ: «طه الكُوبْرَا» — بلِسانِه هو.

وكُلُّ جُزءٍ يَحملُ ما لا يَعرِفُه الجُزءانِ الآخَران، وفي كُلٍّ منها ما يُصَحِّحُ ما قَبْلَه؛ فثَمَّةَ وَقائعُ يَحكيها الأوَّلُ على وَجْهٍ فيَتَبَيَّنُ في الثَّاني أنَّها جَرَتْ على غَيرِه، ومَواضِعُ يَسكُتُ عنها الأوَّلان فلا يَفتَحُها إلَّا الثَّالث.

فلكَي تَفهَمَ الحِكايةَ لا بُدَّ من قِراءةِ الأجزاءِ الثَّلاثةِ على تَرتيبِها: من المُورفين، إلى نَوال، إلى طه. ومَن قَرَأَ واحِداً منها وَحدَه فقد قَرَأَ شَهادةً صادِقةً ناقِصة.

وهذا هو الجُزءُ الثَّالِث.

عتبة

سَمَّاني أبي طه، أُمنِيَةً.

وسَمَّاني الدَّرْبُ الكُبرى، شَهادةً.

وما بينَ الأُمنِيَةِ والشَّهادةِ أربَعونَ سَنةً

أحكيها لكَ الآنَ

وأنا أعلَمُ أنَّ أحَداً لن يُعيدَ لي الاسمَ الأوَّلَ

عَزِيزِي القَارِئ

أنا طه.

ولَدٌ وُلِدَ في الدَّارِ البَيضاءِ سَنَةَ اثنتَينِ وثَمانين، في بَيتٍ أبيَضَ له حَوضٌ يُملَأُ في يونيو، ومَضى من عُمرِه عِشرونَ سَنَةً لا يَعرِفُ للمُستَحيلِ مَعنًى، ثمَّ عَرَفَه في صَباحٍ واحِد.

ولستُ كاتباً. وما أعرِفُ من الكَلامِ إلَّا ما يُقالُ على سَطحِ بِناية أو من خَلفِ شَبَكةٍ مَعدنيَّة. وقد كَتَبتُ مَرَّةً في كُرَّاسٍ أعطَوني إيَّاه في مَكتَبةِ السِّجْنِ صَفحاتٍ لا نَظْمَ فيها، وما كُنتُ أحسِبُ يَومَها أنِّي سأعودُ إلى الوَرَقِ وأنا في الرَّابعةِ والأربَعين.

ولا أحكي هذا لِيُعذَرَ لي شَيء. فأنا رَجُلٌ باعَ ما يُمرِضُ النَّاسَ سَبعَ سَنَواتٍ وأطعَمَ منه أُمَّه، وليس في الدُّنيا كَلامٌ يُصَحِّحُ هذه الجُملة. وقد جَرَّبتُ أن أُصَحِّحَها عشرينَ سَنَةً بالحِساب: ما أكرَهتُ أحَداً، والذي جاءَ جاءَ بقَدَمَيه، ولو لم أبِعْ لَباعَ غَيري. وكُلُّ ذلك صَحيحٌ ولا يُنجيني، وقد فَهِمتُ ذلك مُتَأخِّراً كما فَهِمتُ كُلَّ شَيء.

وأحكيه لأنَّ في هذه الحِكايةِ ثَلاثةَ أشياءَ لا يَعرِفُها أحَدٌ في الدُّنيا غَيري، وأنا في مَوضِعٍ قد أخرُجُ منه وقد لا أخرُج، فإن مَضَيتُ وهي معي فقد ضاعَتْ. فلَستُ أكتُبُ لأُبَرِّئَ نَفسي، وإنَّما لأُسَلِّمَ أمانة.

وأُقَدِّمُ إليك ثَلاثةَ أشياءَ قبلَ أن تَدخُل:

أمَّا الأوَّلُ فأنَّكَ لن تَجِدَ في هذه الصَّفحاتِ رَجُلاً قَوِيّاً. ومَن سَمِعَ عَنِّي في المَقاهي أو في الأغاني فإنَّه سَمِعَ عن رَجُلٍ يُخافُ منه؛ وأنا أقولُ لك من أوَّلِ سَطر: ما كان ذلك قُوَّةً في يَومٍ من الأيَّام. الأفعى لا تَصنَعُ سُمَّها لِتَقتُلَ، إنَّما تَصنَعُه لأنَّها عَزْلاءُ من كُلِّ شَيءٍ آخَر.

وأمَّا الثَّاني فأنِّي لن أُسَمِّيَ أحَداً إلَّا من سَمَّيتُه وأنا أعلَمُ ما أصنَع. وفي الحِكايةِ رِجالٌ أحياءٌ لو ذَكَرتُ أسماءَهم لَما بَلَغَتْك هذه الصَّفحات.

وأمَّا الثَّالثُ فأنِّي لن أقولَ لك من أينَ أكتُب. وستَجدُ في الكَلامِ ما يَدُلُّكَ إن أرَدتَ أن تَستَدِلّ: مِلحٌ في الهَواءِ يَأكُلُ حَوافَّ الورَق، وبابٌ لا يُفتَحُ من الدَّاخِل، ولُغةٌ أسمَعُها كُلَّ يَومٍ ولا أفهَمُ منها غَيرَ أربَعِ كَلِماتٍ إحداها اسمي. فاستَدِلَّ ما شِئت، ولا تَسألْني.

وتَبدَأُ الحِكايةُ من لَيلةٍ لم أحضُرْها، في فُندُقٍ وَسْطَ الدَّارِ البَيضاء، وكان بَيني وبينَ بابِه الدَّوَّارِ عَرْضُ شارِعٍ ومَطَرٌ ثَقيل.

طه

الفَصْلُ الأَوَّلُ

لَيْلَةٌ لَمْ أَحْضُرْهَا

كُنتُ هناك.

هذا أوَّلُ ما يَجبُ أن يُقال، ثمَّ يُقالُ ما بَعدَه. كُنتُ هناك في تلك اللَّيلة، في ذلك الشَّارِع، على عَرْضِ أربَعةَ عَشَرَ متراً من البابِ الدَّوَّار. ولم أدخُل.

وصَلتُ في الواحدة ونَيِّف. كُنتُ قد خَرَجتُ من الدَّرْب في مُنتَصَف اللَّيلِ وأنا أعرِفُ أنِّي مُتأخِّرٌ ثَلاثَ ساعات عن مَوعِدي، ودَخَلتُ المدينةَ من جِهةِ الحاجِّ عُمَر، ثمَّ نَزَلتُ شارِعاً ثمَّ شارِعاً، وكان المَطَرُ يَدخُلُ من فَتحةِ الخُوذةِ إلى عَيني فأرى الأضواءَ مُتكَسِّرة. ثمَّ مَرَرتُ أمامَ الفُندُقِ مَرَّةً واحدةً ولم أتَوَقَّفْ عندَه، فإنِّي أعرِفُ أنَّ الدَّرَّاجةَ إذا تَوَقَّفَتْ أمامَ بابٍ صارَتْ هي الخَبَر. فدَخَلتُ في زُقاقٍ جانبيٍّ وأوقَفتُها في العُتمةِ وأطفَأتُ، ومَشَيتُ على قَدَمَيَّ ووَقَفتُ تَحتَ مَظَلَّةِ مَحَلٍّ مُغلَقٍ في الجِهةِ المُقابِلة.

ورأيتُه.

* * *

بَهْوُ إكسلسيورَ في اللَّيلِ مُضاءٌ إضاءةً صَفراءَ تَراها من الشَّارِعِ كأنَّها خِزانةُ عَرْضٍ في واجِهةِ دُكَّان. تَرى الدَّاخِلَ ولا يَراك، فإنَّ من كان في الضَّوءِ لا يَرى من كان في العُتمة؛ وهذه مَعرِفةٌ لا تُتعَلَّمُ في المَدارِس، وإنَّما يَتعَلَّمُها من وَقَفَ لَيالِيَ في الظِّلالِ يَنتَظِرُ مَن يَخرُج.

كان جالِساً في الزَّاوِيةِ القُصوى. أعرِفُ تلك الجلسةَ منذ عِشرينَ سَنة: ظَهْرٌ إلى الحائِطِ ووَجْهٌ إلى البابِ ورِجْلٌ فَوقَ رِجْل. وكان أمامَه فِنجانٌ وقِنِّينةُ ماء.

وكان أمامَه وَرَقٌ وقَلَم.

ها هنا، يا صاحبَ القراءة، أمسكْ عندي.

أنا الذي قُلتُ له في الهاتف: جئْني بورَقٍ وقَلَم. أنا طَلَبتُ ذلك بفَمي وأنا لا أعرِفُ لِمَ طَلَبتُه؛ قُلتُه كما يُقالُ كَلامٌ في اللَّيلِ لِيُقالَ شَيء. ثمَّ رأيتُ الورَقَ على الطَّاولةِ مَوضوعاً مُستَعِداً، والقَلَمَ بجانبِه، وهو جالسٌ يَنظُرُ إلى البابِ كمن يَنتَظِرُ أن يَدخُلَ عليه خَبَر.

فعَرَفتُ في تلك الثَّانيةِ شَيئاً لم أكُنْ أُريدُ أن أعرِفَه، وأعرَضتُ عنه سَنَواتٍ وأنا أعرِفُه.

عَرَفتُ أنَّه حاضِرٌ لِيَكتُبَني لا لِيَمشيَ معي.

* * *

وأنا لم أكُنْ جائياً في تلك اللَّيلةِ لأحكيَ له شَيئاً. حكايتي كانت عندَه كُلُّها، ما تَرَكتُ منها شَيئاً إلَّا قُلتُه له على سُطوحِ البناياتِ ومن خَلفِ الشُّبَّاك، وقد كَتَبَها وغَنَّاها وصارَ النَّاسُ يُرَدِّدونَها في سَيَّاراتِهم. فما بَقِيَ لي كَلامٌ أزيدُه.

جِئتُ أطلُبُ منه شَيئاً واحداً.

جِئتُ أطلُبُ منه أن يَرْكَبَ معي إلى طَنجة.

* * *

ولا تَضحَكْ. أعرِفُ أنَّ الكَلامَ يَبدو صَغيراً مَكتوباً، وأنَّ رَجُلاً في الثَّامنةِ والثَّلاثينَ يَقطَعُ المدينةَ في اللَّيلِ تَحتَ المَطَرِ لِيَطلُبَ من صاحِبِه أن يُرافِقَه في سَفَرٍ، أمرٌ يُضحِكُ مَن لم يَعِشْ ما عِشت.

كُنتُ قد أخَذتُ قَراري في ذلك الأُسبوع: أخرُجُ من هذه البلادِ وأنا أعلَمُ أنِّي قد لا أرجِع. وكان في جَيبي وَرَقَةٌ وفي الكَراجِ دَرَّاجةٌ عَرَضتُها للبَيعِ وفي قَلبي شَيءٌ لم أُسَمِّه. وقَبْلَ أن أمضي أرَدتُ أن أقِفَ مَرَّةً واحِدةً في شارِعٍ في المَرشانِ وأطرُقَ باباً.

عشرونَ سَنةً ولم أطرُقْه. عشرونَ سَنةً وأنا أحمِلُ في رَأسي عُنواناً كاملاً لم أمشِ فيه قَطّ: اسمُ الشَّارِع، ولَونُ الباب، وعَدَدُ النَّوافذ في الطَّابَقِ الأوَّل، وشَجَرةُ تينٍ في الصَّحْنِ غَرَسَها جَدُّها. كُلُّ ذلك من رَسائلَ كَتَبَتْها لي امرأةٌ في العِشرينَ ولم أرَ منه حَجَراً واحداً.

وما كُنتُ أُريدُ أن أُفسدَ عليها بَيتاً، واللهُ شاهد. ولا كُنتُ أحمِلُ من الحُمْقِ ما يَجعَلُني أحسبُ أنَّ امرأةً لها ولَدان تَقومُ من بَيتِها وتَمشي مع رَجُلٍ خارجٍ من زَنزانة وبَحْر. كُنتُ أُريدُ شَيئاً أصغَرَ من ذلك وأعظَم: أن تَراني وَجْهاً لوَجْهٍ مَرَّةً واحدةً وأنا واقفٌ على قَدَمَيَّ، فأقولَ لها جُملةً واحدةً جَهَّزتُها في عُكَّاشةَ سَنةَ ألفَينِ وسَبعةٍ ولم أجِدْ لها بَريداً.

وكُنتُ أعلَمُ أنِّي لا أستَطيعُ أن أقِفَ في ذلك الشَّارِعِ وَحدي.

* * *

فلِمَ لم أدخُلْ؟

لأنِّي عَرَفتُ ما سيَقول. أعرِفُه كما أعرِفُ ظَهْرَ كَفِّي؛ عشرونَ سَنةً مَعه، وأنا أعرِفُ مَتى يَسكُتُ ومَتى يَبدأُ كَلامَه بـــ«اسمَعْ». كان سيَقولُ لي: اسمَعْ يا طه. المَرأةُ مُتَزَوِّجة. لها بَيتٌ وولَدان. وأنتَ ذاهبٌ إلى حَيثُ لا تَعرِف. وما جَدوى أن تَطرُقَ باباً لتَقولَ جُملةً؟ وكان كُلُّ ذلك صَحيحاً. وأنا ما جِئتُ أطلُبُ رَأياً صَحيحاً، فقد كان مَعي في الخُوذةِ ألفُ رَأيٍ صَحيحٍ طُولَ الطَّريق.

ولأنِّي رَأيتُ الوَرَقَ والقَلَم.

ولأنَّ الرَّجُلَ، إذا بَلَغَ الثَّامنةَ والثَّلاثينَ وفي سِجلِّه ما في سِجلِّي، يَعرِفُ شَيئاً عن نَفسه: أنَّه يَحتَملُ البابَ الذي يُغلَقُ في وَجْهِه، ولا يَحتَملُ أن يَطلُبَ فيُرَدّ. فإنَّ الذي يُرَدُّ في طَلَبٍ كهذا يَفهَمُ في تلك اللَّحظةِ مَوضِعَه عندَ صاحِبِه، ومَوضِعُه عندَ صاحِبِه آخِرُ ما بَقِيَ لي أملِكُه.

فاختَرتُ أن لا أُردّ. اختَرتُ أن أقفَ في العُتمة وأراه ثلاثينَ دَقيقةً وَرائي الجِدارُ والمَطَرُ يَنزِلُ في عُنُقي، ثمَّ أعودَ إلى الزُّقاقِ وأُشَغِّلَ الدَّرَّاجةَ وأمضي.

وأقسِمُ أنّي أشعَلتُها على بُعدِ شارِعَين لا أمامَ الفُندُق. ومع ذلك أعرِفُ أنَّه سَمِعَها، فإنَّ لها صَوتاً لا يُشبِهُ صَوتاً آخَرَ في تلك المدينة، وقد سَمِعَه مِئاتِ المَرَّاتِ في الفَجْرِ وهو يَنزِلُ مُنحَدَرَ الدَّرْب. وأحسِبُه ظَنَّ أنَّه تَوَهَّمَ.

لم تَتَوَهَّمْ يا صاحِبي. كُنتُ أنا.

* * *

وقد بَقِيَتْ تلك اللَّيلةُ عِندي عَلامةً على كُلِّ عُمري.

فإنّي قَضَيتُ أربَعينَ سَنةً أُقالُ عَنّي إنّي لا أخافُ. وما كان ذلك كَذِباً؛ ما خِفتُ من رَجُلٍ، ولا من بابٍ يُطرَقُ في الفَجْرِ ثَلاثَ طَرَقات، ولا من زَنزانة، ولا من بَحْرٍ رَكِبتُه في مَطَّاطٍ أسوَدَ مع عشرينَ رَجُلاً يَرتَجِفون. ثمَّ وَقَفتُ لَيلةً واحِدةً على عَرْضِ شارِعٍ من بابِ فُندُقٍ وفي الدَّاخِلِ رَجُلٌ واحِدٌ يُحِبُّني، فلم أقدِرْ أن أعبُرَ أربَعةَ عَشَرَ متراً.

فمَن أرادَ أن يَعرِفَ ما صَنَعَتْ بي هذه الحَياةُ فليَنظُرْ في هذا، لا في المَحاضِرِ ولا في الأحكام: رَجُلٌ يَعبُرُ البَحرَ في قاربٍ لا جانِبَ له، ولا يَعبُرُ شارِعاً.

* * *

وفي الثّالِثةِ وأربَعِ دَقائِقَ من تلك اللَّيلةِ فَعَلتُ شَيئاً، وسأحَدِّثُك عنه في آخِرِ هذا الكِتاب.

ولْأبدَأْ من أوَّله. من بَيتٍ أبيَضَ في حَيٍّ يُسَمُّونَه كاليفورنيا، ومن رَجُلٍ كان يَضرِبُ على كَتِفي ضَربةً واحِدةً ويَقول: الرِّجالُ لا تَعرِفُ للمُستَحيلِ مَعنًى.

الفَصْلُ الثَّانِي

الوَلَدُ الَّذِي لَمْ يُعَلِّمِ الاحْتِمَال

أبي اسمُه شَريف. ولم يَكُنْ رَجُلاً سَيِّئاً، وهذا ما يُتعِبُني إلى اليَوم.

فلو كان سَيِّئاً لَكانت الحكايةُ هَيِّنة: يُقالُ إنَّ أباه ظَلَمَه فصارَ ما صار، ويَرتاحُ النَّاسُ ويَرتاحُ هو ويَرتاحُ القارئ. والحَقُّ أنَّ أبي كان يُحبُّني حُبّاً لا أشُكُّ فيه ساعةً واحِدةً في عُمري، وأنَّه أعطاني كُلَّ ما يَقدِرُ عليه رَجُلٌ لابنه إلَّا شَيئاً واحِداً: لم يُعَلِّمْني أن أحتَمِل.

كان يَضرِبُ على كَتِفي ضَربةً واحِدةً ويَقول: «الرِّجالُ لا تَعرِفُ للمُستَحيلِ مَعنًى». ويَقولُها وهو يَعني الخَير، يَعني أن يَبنيَ فيَّ رَجُلاً لا يَنكَسِر. وما كان يَدري أنَّه يَبني فيَّ رَجُلاً لا يَعرِفُ أنَّ للأشياءِ حُدوداً. ومَن لا يَعرِفُ أنَّ للأشياءِ حُدوداً لا يَعرِفُ أين يَتوَقَّف، ومَن لا يَعرِفُ أين يَتوَقَّفُ يَمشي حتَّى يَسقُط.

وأنا أقولُ هذا وأنا أعلَمُ أنَّه كَلامُ رَجُلٍ يُحاوِلُ أن يَضَعَ ذَنْبَه في مَكانٍ آخَر. فليُحسَبْ عليَّ.

* * *

وأمَّا طُفولَتي فإنَّها كانتْ مَوكِباً، وقد حَكاها غَيري بما يَكفي.

ثَانَوِيَّةٌ أذهَبُ إليها في سَيَّارةٍ وأنا في السَّادسةَ عشْرة، وجَيبٌ فيه مالٌ يَكفي أُسرةً أُسبوعاً، وأصدقاءُ لا يَتَّصلونَ بي إذا لم أَكُنْ أنا الذي يَدفَع ولا أعرِفُ ذلك، وقَناني جِعَة خَضراءُ على حافَةِ شُرفةٍ في بَيتٍ أهلُه مُسافِرون، وحَبَّةٌ بَيضاءُ تَنتَقِلُ في اللَّيلِ من كَفٍّ إلى كَفّ.

وما أُريدُ أن أُطيلَ في ذلك، لأنِّي كَرِهتُه. كَرِهتُه بَعدَ أن فَقَدتُه لا قَبْلَ ذلك، وهذا شَأنُ النَّاسِ جَميعاً؛ غَيرَ أنَّ كَراهِيَتي له صادِقة، فإنَّ تلك السَّنواتَ هي التي نَزَعَتْ مِنِّي العَضَلَةَ التي

يُقاوِمُ بها الإنسان. والذي يَسقُطُ من عُلُوٍّ وقد وُلِدَ في العُلُوِّ لا يَعرِفُ كيف يَتَّقي السُّقوطَ بذِراعِه، فيَنزِلُ على وَجْهِه.

* * *

ولْأَقُلْ لك الآنَ شَيئاً لا يَعرِفُه أحَد.

عَرَفتُ قَبْلَ النَّاسِ كُلِّهم بسَنةٍ كاملة.

لم يُخبِرْني أبي ولا أُمِّي ولا سَمِعتُ مُكالَمةً من خَلفِ باب. وإنَّما شَمَمتُه. هكذا، كما يَشَمُّ الحَيَوانُ المَطَرَ قَبْلَ أن يَنزِل. فإنَّ الخَوفَ له رائحةٌ في الرِّجالِ الكِبار، لا تُشبِهُ العَرَقَ ولا الدُّخان، وأنا شَمَمتُها في أبي في شِتاءِ سَنةِ ثَمانٍ وتِسعينَ ولم أعرِفْ لها اسماً.

رَأيتُ أشياءَ صَغيرةً جدّاً لا يَراها إلَّا وَلَدٌ يُراقِبُ أباه: صارَ يَرُدُّ على الهاتفِ ويَنظُرُ إلى الشَّاشة قَبْلَ أن يَرُدّ. وصارَ يَخرُجُ من البَيتِ ثُمَّ يَعودُ بَعدَ عَشْرِ دَقائقَ لأنَّه نَسِيَ مِلَفّاً. وصارَ يَحُكُّ ظَهْرَ كَفِّه بإبهامه حتَّى يَحمَرَّ وهو يُشاهِدُ الأخبار. وصارَ يَقولُ لأُمِّي في المَساء: «كُلُّ شَيءٍ بخَير»، وهو لم يُسأَلْ عن شَيء.

والمَغلَّفاتُ البَيضاءُ المُقَوَّاة. كانت تَأتي فيَفتَحُها في المَطبَخِ ويُمَزِّقُها. ثُمَّ صارَ يَفتَحُها ولا يُمَزِّقُها. ثُمَّ صارَ لا يَفتَحُها. وفي الشَّهرِ الأخيرِ صارَتْ كَومةً بَيضاءَ على الطَّاولةِ عندَ البابِ يَمُرُّ عليها كُلُّ من يَدخُلُ البَيتَ ولا يَقولُ شَيئاً.

* * *

وفي لَيلةٍ من لَيالي يوليوزَ من سَنةِ ألفَينِ نَزَلتُ لآخُذَ شَيئاً من السَّيَّارةِ في المِرآب.

وكان أبي هناك، جالساً على كُرسيٍّ بلاستيكيٍّ بين عُلَبِ الزَّيتِ وإطارٍ قَديمٍ، في قَميصٍ أبيَضَ وقَد حَلَّ رَبطةَ عُنُقِه وأبقاها مُعَلَّقةً، ورَأسُه بين كَفَّيه.

وكان يَبكي.

يَبكي بُكاءَ الرِّجالِ الذي لا صَوتَ فيه؛ كَتِفانِ تَرتَجِفانِ ونَفَسٌ يَخرُجُ مُقَطَّعاً. وكانت لَمبةٌ واحِدةٌ مُعَلَّقةٌ فَوقَه تُهَزُّ بالهَواءِ فتَهتَزُّ معها ظِلالُ كُلِّ ما في المِرآب.

ووَقَفتُ في الدَّرَجِ ولم أدخُلْ عليه.

واللهِ ما أعرِفُ في عُمري قَراراً أسوأَ من هذا، ولا أكثَرَ تَكراراً في رَأسي. أربَعُ خُطُوات. أربَعُ خُطُوات ويَدٌ على الكَتِفِ وكَلِمةٌ واحِدةٌ: أنا مَعك. فما فَعَلتُ. رَجَعتُ على أطرافِ قَدَمَيَّ إلى غُرفَتي وأغلَقتُ البابَ وأشعَلتُ سيجارةً عِندَ النَّافِذة، وأنا ابنُ ثَمانيَ عشْرةَ سَنةً مُفزَّعٌ لا يَدري ما يَفعَل.

ولَمَّا فَعَلَ بي صاحِبي بَعدَ ذلك بعشرينَ سَنةً ما فَعَلَ — أن يَكتُبَني ولا يَمشيَ معي — لم أستَطِعْ أن أغضَبَ عليه غَضَباً كاملاً. لأنِّي أنا وَقَفتُ في ذلك الدَّرَجِ أوَّلاً. ومَن وَقَفَ في دَرَجٍ مَرَّةً فليس له أن يُحاسِبَ من وَقَفَ في بَهْوِ فُندُق.

هذه أوَّلُ أمانةٍ خُنتُها في عُمري، وأنا ابنُ ثَمانيَ عشْرة، وما عَلِمَ بها أحَد.

* * *

وجاءَ صَباحُ الثَّاني والعِشرينَ من أكتوبر.

وقد حُكِيَ عن ذلك الصَّباحِ بما يَكفي: الطَّرَقاتُ الثَّلاث، والمِعطَفُ الرَّماديُّ والمِلَفُّ الأزرَق، ورَجُلٌ يَمُرُّ على الأشياءِ ويَكتُبُ: كُرسيٌّ، وكُرسيٌّ، وخِزانةٌ من خَشَبٍ أحمَر، وثُريَّا.

وأنا أزيدُ عليه ثَلاثةَ أشياءَ لم يَرَها غَيري.

الأوَّلُ أنَّ أُمِّي لم تَكُنْ تُسنِدُ البابَ بكَفِّها كما حُكِيَ لك. كانتْ تُغَطِّي بكَفِّها عَلامةً في الخَشَبِ عِندَ طَرَفِ البابِ، خُطوطاً صَغيرةً كانتْ تَرسُمُها كلَّ سَنةٍ بقَلَمِ رَصاصٍ لِتَقيسَ طُولي؛

سَبعُ خُطوطٍ من سَنةِ ثَلاثٍ وتِسعينَ إلى سَنةِ تِسعٍ وتِسعين. وكانتْ تُغَطِّيها بكَفِّها لئلَّا يَكتُبَها الرَّجُلُ في دَفتَرِه.

والثَّاني أنَّ المُفَوَّضَ القَضائيَّ، وهو يَخرُج، نَظَرَ إليَّ نَظرةً واحدةً وقال كَلمةً لا أدري أقالَها لي أم لنَفسه: «الله يَسهَّل». ولم يَكُنْ في وَجْهِه شَرٌّ، وهذا أسوأُ ما فيه. فإنَّ الذي يَفعَلُ بك ما لا يَخُصُّه لا يُمكِنُك أن تَكرَهَه، فيَبقى كُرهُك في يَدِك لا تَجِدُ له وَجْهاً تُلقيه عليه.

والثَّالثُ أنَّ أبي لم يَنظُرْ إليَّ مَرَّةً واحِدةً كما حُكِي. نَظَرَ إليَّ مَرَّتَين. الأولى حينَ قال: «اجمَعْ ثيابَك يا وَلَدي». والثَّانيةُ في المَساءِ في الحافلة رَقَم أربَعة وخَمسين، وكُنَّا واقفَين لأنَّ المَقاعدَ كانتْ مَشغولة، وهو يُمسِكُ القَضيبَ العَلويَّ بيَدٍ وحَقيبةً باليَدِ الأُخرى، فنَظَرَ إليَّ وفَتَحَ فَمَه ليَقولَ شَيئاً.

ولم يَقُلْه.

وقد عِشتُ أربَعاً وعِشرينَ سَنةً أُفَكِّرُ في الجُملة التي لم يَقُلْها في تلك الحافلة. وأحسبُ، وهذا أحسَنُ ما بَلَغتُ إليه، أنَّه كان سيَقولُ: اغفِرْ لي. ثمَّ عَرَفَ أنَّ وَلَداً في الثَّامنةَ عشْرةَ لا يَملِكُ أن يَغفِرَ لأبيه، فسَكَت.

الفَصْلُ الثَّالِثُ

كَيْفَ يُصْنَعُ السُّمُّ

لم أنزِلْ إلى الدَّرْبِ. أُنزِلتُ فيه كما يُنزَلُ الحَجَرُ في الماء.

وأوَّلُ ما تَعلَّمتُه هناك أنَّ الذي كُنتُ أحسبُه أنا — ذَوقي، وكَلامي، ولُغَتي التي فيها فَرَنسيَّة، وطَريقةُ مَشْيي — لم يَكُنْ أنا؛ إنَّما كان بَرْداً وسُكَّراً وماءً ساخناً وثياباً تَجيءُ من دُكَّانٍ في المَعاريف. فلَمَّا زالَتْ هذه زالَ مَعها ثَلاثةُ أرباعِ ما كُنتُ أحسبُه شَخصِيَّتي. وبَقِيَ الرُّبعُ. ومن ذلك الرُّبعِ صَنَعتُ ما صَنَعت.

والغُرفةُ أربَعةُ أمتارٍ مُرَبَّعة. وقد قاسَها الذين حَكَوا عَنِّي وأحسَنوا الوَصْف، غَيرَ أنَّ الأمتارَ المُرَبَّعةَ لا تُفهَمُ بالقياس. إنَّما تُفهَمُ هكذا: أنَّك لا تَستَطيعُ أن تَبكيَ في بَيتك. لا مَوضِعَ تَبكي فيه. فإن بَكَيتَ سَمِعَتْك أُمُّكَ وهي مَريضة، فتَزيدُ على مَرَضِها حَمْلَكَ أنت. فصارَ البُكاءُ عِندي يَجري في المَرحاضِ المُشتَرَكِ في الطَّابَقِ أو على السَّطْحِ أو في الحافِلة.

* * *

وأمَّا كيفَ بَدَأَ الأمر، فإنِّي سأحكيه لك بلا تَزويقٍ ولا شَرْح، لأنَّ الشَّرحَ في هذا البابِ كَذِب.

بَدَأتُ بالحَديد. أجمَعُه من الأوراشِ ومن الهَدْمِ وأحمِلُه على ظَهري وأبيعُه بالوَزْن. ثمَّ بقِطَعِ الدَّرَّاجاتِ المُستَعمَلة، أفُكُّها وأُركِّبُها وأبيعُها. وكُنتُ أرجِعُ في المَساءِ وفي يَدي ما يَكفي لِخُبزٍ وزَيتٍ وقارورةِ غاز، لا أكثَر.

وفي شَهرٍ مارسَ من سَنة ألفَين وواحد جاءَ مَوعدُ التَّصفية ولم يَكُنْ في البَيت ما يَكفي. وكانت الحَوالةُ من ألمانيا مُتَأخِّرةً أحَدَ عَشَرَ يوماً. وجَلَستُ على حافَةِ المَرتَبةِ أعُدُّ ما في جَيبي ثَلاثَ مَرَّاتٍ كأنَّ العَدَّ يُزيدُه.

وفي تلك اللَّيلة وَقَفَ معي عندَ الزَّاوية رَجُلٌ من حَيٍّ آخر. لم يَعرِضْ عليَّ شَيئاً، وهذا أوَّلُ ما يَجبُ أن يُفهَمَ عن هؤلاء: إنَّهم لا يَعرِضون. إنَّما سأَلَني عن حالي، وأطالَ السُّؤالَ، وسَمِعَ حتَّى آخري، ثمَّ قال كَلاماً عامَّاً عن أنَّ اللهَ يَفتَحُ أبواباً. ثمَّ انصرَف.

وجاءَ بَعدَ ثَلاثة أيَّامٍ وفي يَده شَيءٌ مَلفوفٌ في وَرَق، وقال: «هذه أمانة. تُوَصِّلُها إلى رَجُلٍ في المَقهى الفُلاني، وتَأخُذُ أنتَ ثَمَنَ تاكسي».

فحَمَلتُها.

ها هنا، يا صاحبَ القراءة، لا تَنتَظِرْ منِّي أن أقولَ إنِّي لم أعرِفْ ما في الوَرَق. عَرَفتُ. عَرَفتُ قَبْلَ أن يَضَعَها في يَدي، وعَرَفتُ وأنا في التَّاكسي، وعَرَفتُ وأنا أدخُلُ المَقهى. ولم تَكُن الكارثةُ في تلك اللَّيلة أنِّي حَمَلتُها؛ الكارثةُ أنَّها كانتْ أسهَلَ شَيءٍ فَعَلتُه في ذلك الشَّهر. عَشْرُ دَقائقَ وثَمَنُ أُسبوع.

ومَن ذاقَ هذا مَرَّةً فقد انتَهى أمرُه. فليس الشَّرُّ باباً يُدخَلُ منه دَفعةً حتَّى تَقولَ لنَفسك: ها أنا قد دَخَلت. إنَّما هو دَرَجةٌ واحِدة، ويُقالُ لك: ارجِعْ متى شِئت. ثمَّ تَلتَفِتُ بَعدَ سَنَتَين فلا تَجِدُ السُّلَّم.

وفي سَنَةِ ألفَين واثنَتَين صارَ لي مَن يَحمِلُ لي. وفي سَنَةِ ألفَين وأربَعةٍ صارَ لي زُقاقان.

* * *

وأمَّا الاسم.

سَمَّوني في الشَّهرِ الأوَّلِ بُتي سْوِيس، تَشبيهاً بعُلْبةِ الجُبْنِ الحُلْوِ الأبيَضِ الذي يَأكُلُه أولادُ الأغنياءِ في الاستراحة. ولم يَكُنْ في ذلك ظُلْمٌ؛ كُنتُ كذلك فِعْلاً: أبيَضَ نَحيفاً في حِذاءٍ غالٍ مُهتَرِئٍ لا يُشبِهُ أحذِيَتَهم، وفي كَلامي كَلِماتٌ لا تَنفَعُ في ذلك الشَّارِع.

وتَحمَّلتُها ثَلاثةَ أشهُر. ثَلاثةُ أشهُرٍ وأنا أنزِلُ الدَّرَجَ كلَّ صَباحٍ وأسمَعُ الكَلِمةَ تَتبَعُني.

ثمَّ جاءَ ذلك المَساءُ عِندَ الدُّكَّان. وأنا سأحكيه كما وَقَعَ لا كما يُحكى في المَقاهي.

أخَذَ قِنِّينةَ الزَّيتِ من يَدي ورَفَعَها ونَظَرَ إلى الواقِفينَ ضاحِكاً وقال: قُلْ لي بُتِي سْوِيس، وخُذْها.

وأنا لم أغضَبْ. هذا ما يَجِبُ أن يُفهَم. ما كان في صَدري غَضَبٌ ولا في عَيني دَمْعٌ ولا في يَدي رَجْفة. وإنَّما جاءَني في تلك الثَّانيةِ حِسابٌ باردٌ واضِحٌ كأنَّه مَكتوبٌ على وَرَق: إمَّا أن تَقولَها الآنَ فتَقولَها كُلَّ يَومٍ عَشْرَ سَنَوات، وإمَّا أن يَنتَهيَ الأمرُ في عَشْرِ ثَوانٍ.

فانتَهى في أقَلَّ من عَشْر.

ولم أشعُرْ بشَيء. هذه أصدَقُ جُملةٍ في هذا الفصل: لم أشعُرْ بشَيء. ولا بَعدَها. وقد بَقيتُ أُفَكِّرُ في ذلك سَنَوات: كيف يَفعَلُ الإنسانُ بجَسَدِ إنسانٍ ما فَعَلتُ ثمَّ يَرجِعُ إلى الغُرفةِ ويَأكُلُ. وما وَجَدتُ جَواباً إلَّا واحِداً: أنَّ الذي مات في المِرآبِ في تلك اللَّيلةِ وأنا على الدَّرَجِ لم يَكُنْ أبي وَحدَه.

وفي اللَّيلةِ نَفسِها قال واحِدٌ عِندَ الزَّاوِيةِ وهو يَلُفُّ سيجارةً: هذا ما كان بُتِي سْوِيس قَطّ. هذا كُوبرا.

وفي الصَّباحِ نادَوني بالاسمِ الجَديد. ولم أُصَحِّحْ لهم.

وكان يَجِبُ أن أُصَحِّحَ لهم. هذه الجُملةُ كَلَّفَتْني عِشرينَ سَنةً لأقولَها.

* * *

ولْأقُلْ لك الآنَ ما تَعَلَّمتُه في أربَعينَ سَنةً عن هذا السُّمِّ الذي حَمَلتُ اسمَه.

يَحسبُ النَّاسُ أنَّ الأفعى شُجاعة. وما في الأفعى شَجاعةٌ ولا ذَرَّةٌ منها. انظُرْ إليها: لا مِخلَبَ، ولا حافِرَ، ولا قَرْن، ولا نابٌ يَنهَشُ، ولا ساقٌ تَجري. حَيَوانٌ أعزَلُ تَماماً، لَحْمٌ طَويلٌ

على الأرضِ يَطَؤه كُلُّ ماشٍ. فمِن أينَ جاءَها السُّمّ؟ جاءَها من هناك بالذَّات: من أنَّها لا تَملِكُ شَيئاً آخَر. السُّمُّ سِلاحُ من لا جَسَدَ له.

وكذلك القَسوةُ في النَّاس. ما رَأيتُ في عُمري قاسياً إلَّا وتَحتَ قَسْوَتِه وَلَدٌ خائفٌ لم يَجِدْ في اللَّيلةِ المُناسِبةِ من يَضَعُ يَدَه على كَتِفِه ويَقولُ له: أنا مَعك.

وأنا كُنتُ ذلك الوَلَد. وكُنتُ أيضاً الذي لم يَفعَلْ ذلك لأبيه. فكُنتُ الجُرحَ والسِّكِّينَ في جِسمٍ واحِد.

الفَصْلُ الرَّابِعُ

الصَّيْفُ الوَحِيد

في حَياةِ كُلِّ رَجُلٍ ثَلاثةُ أسابيعَ يَدفَعُ عنها بَقِيَّةَ عُمرِه.

نَزَلتُ إلى أغاديرَ في يوليوزَ من سَنةِ ألفَين، ومِفتاحُ السَّيَّارةِ رَماه إليَّ أبي على طاوِلةِ الفُطور. ولم أكُنْ أعرِفُ أنَّ ذلك آخرُ مِفتاحٍ يُرمى إليَّ في عُمري، ولا أنَّ بَيني وبينَ الحافِلةِ رَقَم أربَعةٍ وخَمسينَ ثَمانيةُ أسابيع. ولو عَرَفتُ، واللهِ، ما تَغيَّرَ شَيء. فإنَّ ابنَ الثَّامِنةَ عشْرةَ لا يَصدِّقُ أنَّ غَداً يَأتي أصلاً.

رَأيتُها في كازينو أطلانتيك.

ولم أكُنْ ألعَب، فما أحبَبتُ ذلك قَطّ. دَخَلتُ لأنَّ القاعةَ في الطَّريقِ ولأنِّي كُنتُ أدخُلُ الأبوابَ كُلَّها، لا من رَغبةٍ وإنَّما من فَراغٍ لم أعرِفْ له اسماً إلَّا بَعدَ عِشرينَ سَنة.

وسَمِعتُ ضَحِكة.

وسأشرَحُ لك هذا، إذ هو الشَّيءُ الأوَّلُ من الثَّلاثة التي لا يَعرِفُها أحَدٌ غَيري. أنا كُنتُ قد عَرَفتُ في تلك السَّنوات من البَنات ما يُفسِدُ القَلْب؛ لَيالٍ لا أسماءَ لها، ووُجوهٌ لا أُمَيِّزُ بَعضَها من بَعض، وكُلُّهُنَّ كُنَّ يَضحَكْنَ لي ضَحِكاً مَحسوباً: ضَحِكاً فيه طَلَبٌ، أو فيه مُجامَلة، أو فيه حِسابُ ما في جَيبي. ولم أسمَعْ في عِشرينَ سَنةً ضَحِكةً لا تُريدُ مِنِّي شَيئاً.

وضَحِكةُ تلك البنت في القاعة لم تَكُنْ لي. كانتْ لخالِها وهو يَخسَر، فيها شَفَقةٌ ومَحَبَّة. ضَحِكَتْ ولم تَكُنْ تَعلَمُ أنَّ في القاعةِ من يَسمَع.

فنَظَرتُ إليها نَظرةً واحِدةً وانصَرَفت. وقد سُئِلتُ بَعدَ ذلك: ولِمَ لم تَتقَدَّم؟ وأنا، الذي كُنتُ أتقَدَّمُ إلى كُلِّ شَيء. والجَوابُ أنِّي لم أعرِفْ ماذا أقول. أنا الذي كان مُعَلِّماً في هذا البابِ

وُقِفتُ فيه تِلميذاً، لأنَّ الذي أكثَرَ من النِّساءِ يَعرِفُ بالضَّبطِ ما لم يَكُنْ يُحِبّ، فيَرتَعِدُ حينَ يَرى ما يُحِبّ.

* * *

ثمَّ مَضَتْ ثَلاثةُ أيَّامٍ ثِقالٌ لا أُحِبُّ ذِكْرَها.

وفي صَباحِ الرَّابِعِ كُنتُ أنزِلُ الدَّرَجَ الدَّاخِليَّ للفُندُقِ من الطَّابَقِ الأوَّلِ إلى البَهْو، فتَوَقَّفتُ في مُنتَصَفِه.

فإنَّها كانتْ هناك.

واقِفةً أمامَ الطَّاولةِ في معطَفٍ خَفيفٍ وشَعْرُها مَرفوعٌ، تُكَلِّمُ الرَّجُلَ ويَدُها تَمُدُّ إليه وَرَقةً مَطوِيَّة. ورأيتُ يَدَها تَرتَجِف. ورأَيتُه يَأخُذُها ويَقولُ لها شَيئاً فتُطأطِئُ رَأسَها وتَخرُجُ مُسرِعة.

فبَقِيتُ في مُنتَصَفِ الدَّرَجِ حتَّى خَرَجَتْ، ثمَّ نَزَلتُ ومَدَدتُ يَدي إلى الرَّجُلِ فأعطاني الوَرَقة. وفَتَحتُها وقَرأتُ ثَلاثَ كَلِماتٍ عن المِيناءِ والسَّادِسةِ وقَواربِ الصَّيد.

ولم أقُلْ لها قَطُّ إنِّي رَأيتُها.

عِشرونَ سَنة. مِئاتُ المُكالَماتِ ودَزِّيناتُ الرَّسائِلِ وسَبعُ سَنَواتٍ من الحافِلاتِ اللَّيليَّة، ولم أقُلْ لها: أنا رَأيتُكِ وأنتِ تُسلِّمينَ الوَرَقة، ورأيتُ يَدَكِ تَرتَجِف.

ولِمَ كَتَمتُ ذلك؟ لأنِّي عَرَفتُ، وأنا واقِفٌ في مُنتَصَفِ الدَّرَج، أنَّ تلك البِنتَ فَعَلَتْ من أجلي شَيئاً أكبَرَ من قُدرَتِها. وعَرَفتُ أنَّ الذي يَفعَلُ فَوقَ قُدرَتِه يَستَحي مِمَّا فَعَل. فسَكَتُّ لأحفَظَ لها وَجْهَها.

وجِئتُ قَبْلَ المَوعِدِ بأربَعينَ دَقيقة. وقد قيلَ لك ذلك، ولم يُقَلْ لك لِمَ: لأنِّي خِفتُ أن تَجيءَ فلا تَجِدَني فتَحسِبَ أنِّي استَخفَفتُ بها، فتَكونَ قد فَعَلَتْ ذلك كُلَّه في فُندُقٍ أمامَ رَجُلٍ غَريبٍ من أجلِ لا شَيء.

* * *

ومَضَت الأسابيعُ الثَّلاثةُ، ورَجَعَتْ هي إلى طَنجةَ ورَجَعتُ أنا إلى الفيلَّا. وبَعدَ ثَمانيةِ أسابيعَ طُرِقَ البابُ ثَلاثَ طَرَقات.

وها هنا يَبدأُ ذَنْبي نَحوَها، وهو أثقَلُ من كُلِّ ما حُسِبَ عليَّ في المَحاضِر.

فإنِّي اتَّصَلتُ بها في أواخرِ أكتوبر، بَعدَ الحَجْزِ بأُسبوعٍ، من هاتفٍ عُموميٍّ في أوَّلِ الزُّقاق. وكُنتُ قد حَضَّرتُ في الطَّريقِ كَلاماً أقولُه: أنَّ أحوالَنا تَغيَّرَتْ، وأنَّ الذي عَرَفَتْه في أغاديرَ لم يَبْقَ منه شَيء، وأنَّها بِنتُ بَيتٍ ولها طَريقٌ غَيرُ طَريقي، وأنَّ لي عليها حَقّاً واحداً أن تَنساني.

وسَمِعتُ صَوتَها فلم أقُلْ شَيئاً من ذلك. قُلتُ إنَّ في الشَّرِكةِ مَشاكِلَ وإنَّنا انتَقَلنا إلى حَيٍّ آخَر، وقُلتُ ثَلاثَ مَرَّاتٍ إنِّي بخَير.

ثمَّ نَفِدَت القِطَعُ النَّقديَّةُ فانقَطَعَ الخَطُّ في وَسَطِ جُملة. ووَقَفتُ في المَقصورةِ الزُّجاجيَّةِ المَكسورةِ وَحدي، والمَطَرُ يَترِلُ خارِجاً، وأنا أعلَمُ عِلْمَ اليَقينِ أنِّي قد جَرَرتُها معي.

* * *

وأمَّا سِنو الحَديدِ فقد حُكِيَ عنها.

كُنتُ أقولُ لها: الحَديدُ، وقِطَعُ الغيار، وأطنانٌ وأسعارٌ ووَرْشٌ في عَينِ السَّبْع. وتَحسبُ أنتَ، ويَحسبُ النَّاسُ، أنِّي كَذَبتُ لأحفَظَ لها صُورَتي. وفي ذلك شَيءٌ من الحَقّ، ولكنَّ الحَقَّ الكاملَ أقبَح.

كَذَبتُ لأنِّي كُنتُ أحتاجُ إليها.

أنا عَرَفتُ من سَنةِ ألفَينِ وواحد أنَّه كان يَجبُ أن أقطَعَ الأمرَ. عَرَفتُ ذلك في عَقلي كما أعرِفُ أنَّ الشَّمسَ تَطلُع. وكُنتُ أُحَضِّرُ الكَلامَ وأنا في الحافِلةِ اللَّيليَّةِ كُلَّ مَرَّة: الليلةَ أقولُ لها.

وأصِلُ في الفَجْرِ وأغسِلُ وَجهي في مِرحاضِ المَحطَّةِ وأنظُرُ في المِرآةِ وأقولُ: اليَوم. ثمَّ أراها آتِيَةً من أوَّلِ الشَّارِعِ فلا أقول.

لأنَّها كانت الشَّيءَ الوَحيدَ في حَياتي الذي يُشبِهُ الحَياةَ التي كانتْ لي. سَبعُ سَنَواتٍ وأنا رَجُلٌ يَبيعُ السُّمَّ في زُقاقٍ، ويَجلِسُ ساعَتَينِ كُلَّ شَهرَينِ أمامَ امرأةٍ تَنظُرُ إليه كأنَّه ما كانَ في ذلك الزُّقاقِ يَوماً. فكانتْ هي المِرآةَ الوَحيدةَ التي أرى فيها وَجْهاً أُطيقُه.

فما أبقَيتُها من أجلِها. أبقَيتُها من أجلي. وأخَذتُ من عُمرِها سَبعَ سَنَواتٍ هي خِيارُ عُمْرِ المَرأةِ في بِلادِنا، أخَذتُها وأنا أعلَمُ أنِّي لا أملِكُ أن أُعطيَها شَيئاً في آخِرِها.

هذا هو. اكتُبْه عليَّ.

* * *

وفي شتاءِ سَنةِ ألفَينِ وخَمسةٍ، في مَقهًى على السَّاحِلِ هناك والرِّيحُ تَضرِبُ الزُّجاجَ، كُنتُ أشرَحُ لها صَفقةَ حَديدٍ لا وُجودَ لها.

فأدارَتْ وَجهَها إلى البَحْرِ وقالتْ: «أنا لا أسألُك عن الحَديد».

ولا أستَطيعُ أن أصِفَ لك ما جَرى لي في تلك اللَّحظة. إنَّما سأقولُ لك ما لم يُقَلْ: أنِّي كُنتُ أنتَظِرُ تلك الجُملةَ سَبعَ سَنَوات.

كُنتُ أنتَظِرُها كما يَنتَظِرُ المَريضُ التَّشخيص. فإنَّ أثقَلَ ما يَحمِلُه الكاذبُ ليس كَذِبَه؛ إنَّما هو أن يَكونَ وَحدَه في الكَذِب. وقد صارَ لي في تلك الدَّقيقةِ شَريكٌ في الحَقيقةِ، فخَفَّ عن ظَهري ما لا تُطيقُ أنتَ أن تَتَصَوَّرَه.

ولذلك لم أقُلْ شَيئاً. أخَذتُ يَدَها ووَضَعتُها على الطَّاولةِ بين كَفَّيَّ ونَظَرتُ إلى الزُّجاج. وأنا أحسبُها فَهِمَتْ أنِّي سَكَتُّ من الخَجَل. والحَقُّ أنِّي سَكَتُّ لأنِّي لو تَكَلَّمتُ لَبَكَيتُ أمامَها، وما بَكَيتُ أمامَ أحَدٍ في عُمري.

وبَعدَ ذلك الشِّتاءِ بثَلاثةِ أشهُرٍ جاءَ الفَجْرُ الذي صَعِدَتْ فيه الأحذِيةُ الثَّقيلةُ إلى الطَّابَقِ الثَّالِث.

الفَصْلُ الخَامِسُ

الثُّقْبُ فِي الذِّرَاعِ

أُمِّي كان وَزنُها ثَمانيةً وأربَعينَ كيلوغراماً.

أعرِفُ ذلك لأنِّي كُنتُ أحمِلُها. ثَلاثَ مَرَّاتٍ في الأُسبوعِ سَبعَ سَنَوات: من الغُرفةِ إلى الدَّرَجِ، ومن الدَّرَجِ إلى التَّاكسي، ومن التَّاكسي إلى بابِ القِسْم. وبنايَتُنا ثَلاثةُ طَوابِقَ بلا مصعَد، ودَرَجُها اثنتانِ وأربَعونَ دَرَجةً عَدَدتُها حتَّى صِرتُ أعرِفُ عِندَ أيِّ واحِدةٍ يَجِبُ أن أُبَدِّلَ يَدي.

وكانتْ خَفيفةً حتَّى إنِّي في السَّنةِ الأخيرةِ صِرتُ أحمِلُها وأنا لا أَتوَقَّفُ في المُنتَصَف. وما كان ذلك لأنِّي قَوِيت.

وفي ذِراعِها، في باطِنِ الذِّراعِ اليُسرى، كان ثُقْبٌ لا يُشفى. ثُقْبٌ صَغيرٌ أزرَقُ الحَوافِّ يَفتَحونَه ثَلاثَ مَرَّاتٍ في الأسبوعِ فلا يُهنَأُ له أن يَنبُت. وكانتْ تُغَطِّيه بكُمِّها إذا دَخَلَ عليها جار. وكُنتُ أنا، إذا أمسَكتُ ذِراعَها لأحمِلَها، أُبعِدُ كَفِّي عن ذلك المَوضِعِ من غَيرِ أن أُفَكِّر؛ عَشْرَ سَنَواتٍ وأنا أُبعِدُ كَفِّي عنه كأنَّه سَيوجِعُني أنا.

* * *

وأمَّا هل عَرَفَتْ، فإنَّ هذا هو السُّؤالُ الذي سَألوني إيَّاه بأشكالٍ كَثيرةٍ ولم أُجِبْ عنه أحَداً، وأنا أُجيبُه الآنَ مَرَّةً واحِدةً وإلى الأبَد.

لا. لم تَعرِفْ.

ما عَرَفَتْ في حَياتِها شَيئاً. ماتَتْ وهي تَحسبُ أنَّ ابنَها يَعمَلُ في الحَديدِ وقَطعِ الغِيار، وأنَّه يَخرُجُ في السَّادِسةِ ويَرجِعُ في العاشِرةِ لأنَّ العَمَلَ شاقٌّ والأُجورُ قَليلة، وأنَّ اللهَ بارَكَ له في يَدِه.

وكانتْ تَدعو لي.

تَدعو لي في كُلِّ صَلاة وبَعدَ كُلِّ صَلاة، ودُعاؤها مَسموعٌ في الغُرفة لأنَّها كانتْ تَدعو بصَوت خافت يُسمَع: ألَّا يُرِيَني اللهُ ضُرَّاً، وأن يُبارِكَ في تِجارَتي، وأن يَرزُقَني الحَلال. هكذا. بهذا اللَّفظ بالذَّات: وأن يَرزُقَه الحَلال.

وكُنتُ أسمَعُها وأنا مُستَلقٍ على المَرْتَبة على بُعدِ مترٍ منها، وفي جَيبِ سِروالي المُعَلَّقِ على المِسمارِ ما يُحَصِّلُ به ثَمَنَ تَصفِيَتِها.

أربَعةُ أمتارٍ مُربَّعة، يا صاحبَ القِراءة. أربَعةُ أمتارٍ تَحوي امرأةً تَدعو لابنِها بالحَلال، وتَحوي الحَرامَ في الجَيبِ نَفسِه.

* * *

ومَرَّةً واحِدةً سَألَتْني.

في سَنة ألفَين وأربَعة. جاءَتْ بَكَرةُ الدَّواءِ غاليةً ذلك الشَّهر، ودَفَعتُ ثَمَنَ أربَعة أشهُرٍ مُقَدَّماً. فجَلَسَتْ على المَرْتَبة ونَظَرَتْ إلى الكيسِ ثمَّ إليَّ وقالتْ: «ولَدي، هذا كَثير. من أينَ؟».

فقُلتُ لها إنَّ صاحبَ الوَرْشِ أعطاني مُقَدَّمَ صَفقةٍ كَبيرة، وذَكَرتُ اسماً وذَكَرتُ رَقَماً، ورَوَيتُ لها تَفاصيلَ لا داعيَ لها كما يَفعَلُ الكاذبون.

فسَكَتَتْ ساعةً. ثمَّ قالتْ، وهي تُقَلِّبُ شَيئاً في يَدِها: «الحَمدُ لله. ولا تُتعِبْ نَفسَك».

وصَدَّقَتْ. واللهِ إنَّها صَدَّقَتْ، وأنا أعرِفُ وَجهَها حينَ لا تُصَدِّقُ. صَدَّقَتْ لأنَّها كانتْ تُريدُ أن تُصَدِّق، ولأنَّ أُمَّهاتنا يُصَدِّقْنَ أبناءَهُنَّ تَصديقاً يَحسُدُهُنَّ عليه القُضاة.

فإن سألتَني: أيُّهما كان أرحَمَ، أن تَعرِفَ أو أن تَموتَ غَيرَ عالمة؟ فأنا أقولُ: أن تَموتَ غَيرَ عالمة. ماتَتْ نَظيفةً لم يَدخُلْ عليها هذا الأمرُ ساعةً واحِدة، وأنا الذي أحمِلُه، وهو حَقِّي أن أحمِلَه وَحدي.

غَيرَ أنّي خَسِرتُ بذلك شَيئاً آخَر: خَسِرتُ العُذْر. فإنّي كُنتُ أقولُ لنَفسي سَبعَ سَنَوات: أفعَلُ هذا من أجلِها. ولو كانتْ قد عَرَفَتْ ورَضِيَتْ لَقُلتُ: هي وافَقَتْ. وأمّا أن تَموتَ وهي لا تَعلَمُ وهي تَدعو لي بالحَلال، فقد صارَ كُلُّ ما فَعَلتُه عَمَلاً فَعَلتُه أنا وَحدي، بقَراري وَحدي، ولم أستَأذِنِ الذي فَعَلتُه من أجلِه.

ومَن فَعَلَ بإنسانٍ خَيراً لم يَستَأذِنْه فيه، فإنَّه ما فَعَلَه من أجلِه؛ إنَّما فَعَلَه من أجلِ أن يَرتاحَ هو.

* * *

وفي الحادي عَشَرَ من مارسَ سَنَةَ ألفَينِ وستَّةٍ، في الرَّابعةِ وأربَعٍ وثَلاثينَ دَقيقة، صَعِدَتِ الأحذِيةُ الدَّرَج.

ولم أجْرِ. ولم يَكُنْ في الغُرفةِ ما أجري إليه. وفَتَحَتْ هي البابَ بِملحَفَتِها، وكانتْ قد خَرَجَتْ من التَّصفِيةِ قَبْلَ تِسعِ ساعات.

وما أذكُرُ من تلك الدَّقائقِ شَيئاً مُترابِطاً إلَّا شَيئاً واحِداً: أنَّها كانتْ تَقولُ للرِّجالِ وهم يُفتِّشون: «وَلَدي يَعمَلُ في الحَديد. وَلَدي يَعمَلُ في الحَديد».

تُكَرِّرُها. تُكَرِّرُها وهي تُحاوِلُ أن تَقِفَ، ولا تَفهَمُ لِمَ لا يَسمَعُها أحَد.

وأنا واقِفٌ في الرُّكْنِ أسمَعُها وأنا صامِت.

وهذا، إن أرَدتَ أن تَعرِفَ، أشَدُّ ما وَقَعَ لي في أربَعينَ سَنة. لا الحُكْم، ولا السِّجْن، ولا البَحْر. أن أسمَعَ أُمِّي تُدافِعُ عنِّي بكَذِبٍ أنا الذي عَلَّمتُها إيَّاه.

* * *

وفي الثَّالِثِ من فَبرايرَ سَنَةَ ألفَينِ وسَبعةٍ ماتَتْ، وأنا في الدَّاخِل.

ولم أعلَمْ في ذلك اليَوم. عَلِمتُ بَعدَ أربَعٍ وعِشرينَ ساعة.

رَأيتُ أبي من بَعيدٍ وهو يَعبُرُ القاعة. وكان وَحدَه. وكانتْ هي لا تَتخَلَّفُ عن زِيارةٍ قَطُّ وهي تَجيءُ وفي ذِراعِها ثُقْبُ الإبْرةِ مُغَطًّى بالكُمّ، تَجيءُ وقد أنفَقَتْ نِصفَ قُوَّتِها في الطَّريق، لِتَقِفَ خَلفَ الزُّجاجِ عَشْرَ دَقائِقَ وتَقولَ لي: أكَلْت؟

فجَلَستُ قَبْلَ أن يَتكَلَّم.

وتَكَلَّمَ ولم أسمَعْ. أقسِمُ أنِّي لم أسمَعْ منه كَلِمةً واحِدة. كُنتُ أنظُرُ إلى يَدِه على الزُّجاجِ — يَدٌ كانتْ تَضرِبُ على كَتِفي وتَقولُ إنَّ الرِّجالَ لا تَعرِفُ للمُستَحيلِ مَعنًى، وقد صارَتْ عِظاماً ورَأيتُ عُروقَها — وأُفَكِّرُ في شَيءٍ واحِدٍ تافِه: هل أطفَأَ أحَدٌ ضَوءَ الغُرفة؟

هكذا. هذه هي الفِكرةُ الوَحيدةُ التي كانتْ في رَأسي: الضَّوء. لأنَّها كانتْ تُطفِئُ الأضواءَ وتُخاصِمُني إذا تَرَكتُها مُشتَعِلة، وكُنتُ أُضايِقُها بذلك، وما كُنتُ أعرِفُ أنَّ ذلك سيَكونُ آخِرَ ما أحفَظُ عنها.

* * *

ولم أبْكِ في ذلك اليَوم.

ولا في الذي بَعدَه، ولا في الذي بَعدَه. سَبعةَ عَشَرَ يَوماً وأنا أقومُ في الوَقتِ وآكُلُ في الوَقتِ وأخرُجُ إلى السَّاحةِ في الوَقت. ويَجيئُني من في الزَّنزانةِ فيَقولُ الكَلامَ المُعتادَ فأقولُ: اللهُ يَرحَمُها، ويَنصَرِف.

ثمَّ في الثَّامِنةَ عشْرةَ، في اللَّيل، سَقَطَ عليَّ الأمرُ دَفعةً واحِدةً كما يَسقُطُ الجِدار. وما أُحِبُّ أن أحكيَ تلك اللَّيلة. وكُلُّ ما أقولُه أنَّ في الزَّنزانةِ رَجُلاً في الخَمسينَ من سيدي قاسم، لا يُكَلِّمُ أحَداً ولا يُكَلِّمُه أحَد، قامَ في العُتمةِ وجاءَ وجَلَسَ على الأرضِ بجانِبي ووَضَعَ كَفَّه على ظَهْري وبَقِيَ هكذا حتَّى الصَّباح. ولم يَقُلْ كَلِمةً واحِدة.

فإنَّ الكَفَّ على الظَّهْرِ تَجيءُ مِمَّن لا يَعرِفُك، وأنا لم أُمُدَّها إلى أبي في المِرآب.

* * *

وأمَّا الأشياءُ الثَّلاثةُ التي لم أُعْطَها، فأنا أعُدُّها لك وأسكُت.

لم أحمِلْها. حَمَلَتُها ثَلاثَ مَرَّاتٍ في الأسبوعِ سَبعَ سَنَواتٍ على اثنتَينِ وأربَعينَ دَرَجة، وحَمَلَها إلى القَبْرِ رِجالٌ لا أعرِفُ أسماءَهم.

ولم أرَ وَجهَها آخِرَ مَرَّة.

ولم يَكُنْ لي قَبْرٌ أزورُه ثَلاثَ سَنَواتٍ وأربَعَةَ أشهُر. فالنَّاسُ يُدفَنُ لهم مَيْتٌ فيَذهَبونَ إليه يَومَ الجُمعة؛ وأنا كان لي مَكانٌ في الدُّنيا أعرِفُ أنَّ أُمِّي فيه ولا أستَطيعُ أن أصِلَ إليه. وقد عَرَفتُ هناك شَيئاً عن الحُزْن: أنَّه يَحتاجُ إلى مَكان. وأنَّ الحُزْنَ الذي لا يَجِدُ له مَكاناً يَسكُنُ في صاحِبِه، فيَصيرُ هو المَكان.

ولَمَّا خَرَجتُ في صَيف سَنة ألفَين وتسعٍ، وَقَفتُ عندَ البَوَّابة الصَّفراء وصاحِبي أمامي وفي يَدِه كِيسٌ فيه خُبزٌ وزَيتونٌ وشايٌ في قِنِّينةٍ حَراريَّة، فقُلتُ له قَبْلَ كُلِّ شَيءٍ: خُذْني إليها.

وأمَّا الثَّوبُ.

سَألتُه عندَ القَبْرِ عن ثَلاثة أشياء، وكان آخِرُها: هل تَمَّ الثَّوبُ الذي كانتْ تَخيطُه؟ فسَكَتَ. وأنا كُنتُ أعرِفُ الجَوابَ قَبْلَ أن أسأَل؛ سَألتُ لأنِّي كُنتُ أُريدُ أن أسمَعَه من غَيري، كما يُريدُ المَريضُ أن يَسمَعَ تَشخيصَه بصَوتٍ عالٍ.

كانتْ تَخيطُ قَميصاً لي لأنَّها سَمِعَتْ أنِّي قد أخرُجُ في الصَّيف. وبَقِيَ منه كُمٌّ واحِدٌ غَيرُ مَخيط.

وأنا، إلى اليَومِ، إذا أدخَلتُ ذِراعي في كُمِّ قَميصٍ، في أيِّ قَميصٍ، في أيِّ مَكانٍ من الدُّنيا، أتَوَقَّفُ ثانيةً واحِدة.

الفَصْلُ السَّادِسُ

ثَلاثَةُ أَبْوَاب

في عُكَّاشةَ كانتْ لِزَنزانَتي فَتحةٌ عاليةٌ يُسَمُّونَها الشُّرفة، ورَقَمُها على اللَّائحةِ ثَلاثةٌ وثَلاثون.

وفيها سَبعةُ قُضبان. والرَّابعُ من اليَسارِ فيه صَدْأٌ على شَكْلِ وَرَقةِ زَيتون، وأنا أراه الآنَ وأنا أكتُبُ وقد مَضَتْ عَشَرَةٌ وتِسعُ سَنَوات.

ولا أُريدُ أن أُطيلَ في ذلك المَكان، إذ لا فائدةَ في وَصْفِه؛ ومَن كان فيه يَعرِف، ومَن لم يَكُنْ فيه لن يَعرِفَ مهما وَصَفتُ له. وإنَّما أقولُ لك شَيئاً واحِداً سَمِعتُ النَّاسَ يَتنازَعونَ فيه ولم أسمَعْ فيه كَلاماً صَحيحاً.

يَقولون: السِّجْنُ إصلاح. وما أصلَحَ أحَداً عَرَفتُه. ويَقولون: السِّجْنُ مَدرَسةُ الجَريمة. وما عَلَّمَني شَيئاً لم أكُنْ أعرِفُه؛ إنَّما كُنتُ أنا مُعَلِّماً فيه لثَلاثةٍ أو أربَعة، وأستَغفِرُ اللهَ.

والحَقُّ أنَّه يُجَمِّد. يَأخُذُك في سِنٍّ ويُعيدُك إليك في السِّنِّ نَفسِها وقد مَضَتْ سنون. وأنا دَخَلتُ وأنا ابنُ أربَعٍ وعِشرين، وخَرَجتُ وأنا ابنُ سَبعٍ وعِشرينَ في وَرَقةِ الهَوِيَّةِ وابنُ أربَعٍ وعِشرينَ في داخلي. ولذلك خَرَجَ الرِّجالُ من ذلك البابِ فعادوا إلى حَيثُ كانوا، لا لأنَّهم أشرار، وإنَّما لأنَّ الزَّمَنَ قد وَقَفَ عندَهم ومَشى عندَ النَّاس.

وفيه بَدَأتُ أكتُب. طَلَبتُ كُرَّاساً وقَلَماً من المَكتَبةِ وكَتَبتُ أسماءَ من دَخَلَ معي، وأسعاراً، ووَصْفَ حَوضِ سِباحةٍ فارِغٍ في فيلَّا. وكَتَبتُ في الصَّفحةِ الأخيرةِ سَطرَينِ لا أُحِبُّهما ولا أرجِعُ عنهما.

ثُمَّ قُلتُ لصاحِبي: سَجِّلْ. وسَمِّها بما شِئت، بشَرطٍ واحِد: لا تَجعَلْني بَطَلاً.

وقد وَفَّى. وهذا الوَحيدُ الذي وَفَّى لي بوَعْدٍ في عُمري، وأنا لا أنكُرُه له.

* * *

وخَرَجتُ في صَيفِ سَنةِ ألفَينِ وتِسعٍ، فسَألتُ عن شَيئَين: عن قَبْرِها، وعنها.

وكانتْ قد تَزَوَّجَتْ.

ولا أُريدُ أن أكتُبَ في ذلك كَثيراً. وكُلُّ ما أقولُه إنِّي لَبِثتُ ثَلاثَ سَنَوات لا أذكُرُ اسمَها، وأنَّ ذلك ما كان صَبْراً ولا نُبْلاً ولا تَرَفُّعاً. كان شَيئاً أبسَطَ: إنَّ الرَّجُلَ لا يُطيقُ من الخَسارة إلَّا واحِدةً في الوَقتِ الواحد، فإذا تَراكَمَتْ عليه اختارَ منها واحِدةً يَحمِلُها وطَوى الباقِيَ ودَسَّه. واخترتُ أن أحمِلَ أُمِّي.

ولَبِثتُ سَنَواتٍ أقولُ في نَفسي: لِمَ لم تَجِئْ؟

ثَلاثُ سَنَواتٍ وأربَعةُ أشهُرٍ وَرَاءَ ذلك الزُّجاجِ، ويَجيءُ الرِّجالُ والنِّساءُ ويَصرُخون، وأنا أنظُرُ كُلَّ خَميسٍ إلى الصَّفِّ من أوَّله إلى آخِره. وما كُنتُ أنتَظِرُ أن تَقِفَ معي، ولا أن تَعِدَني بشَيء. كُنتُ أُريدُ أن أراها تَدخُلُ ذلك البابَ مَرَّةً واحِدة.

ثُمَّ، بَعدَ عِشرينَ سَنةً، وأنا جالِسٌ في مَكان لا أُسَمِّيه وأمامي بَحْرٌ لا أعرِفُ اسمَه، جاءَني الجَوابُ وَحدَه. وهذا من عَجائِبِ العَقل: أن يُعطيَك بَعدَ عِشرينَ سَنةً ما كان عِندَه من أوَّلِ يَوم.

فإنِّي قُلتُ لنَفسي: وماذا كانتْ ستَقولُ لي؟

أتَقولُ: أنتَظِرُك؟ وهي بِنتُ بَيت لا تَملكُ من أمرِها شَيئاً، وأبوها رَجُلٌ يَعرِفُ في المِيناء ما يُريدُ أن يَعرِف. ومَن وَعَدَ بما لا يَقدِرُ عليه فقد كَذَبَ كَذبةً أقسى من كَذِباتٍ في الحَديد كُلِّها. أم تَقولُ: سَلامٌ عليك؟ فتلك كَلِمةٌ تُقالُ مَرَّةً ولا تُعادُ، وكانتْ ستَقتُلُني في تلك السَّنةِ بالذَّات.

فما كان لها جَوابٌ تُعطينيه. وكُلُّ ما تَملكُه امرأةٌ في مِثلِ حالِها أن تَسكُت.

فسامَحتُها. وأنا أعلَمُ أنَّها لا تَعرِفُ أنِّي سامَحتُها، ولا تَعرِفُ أنِّي اتَّهَمتُها أصلاً. وهذا شَأنُ الحِسابات بينَ النَّاس: تُفتَحُ في صَدْرِ واحِدٍ وتُقفَلُ في صَدْرِه، والآخَرُ يَمشي في الدُّنيا لا يَدري أنَّه كان مُتَّهَماً وأنَّه بُرِّئ.

* * *

ثمَّ رَكِبتُ البَحرَ في خَريفِ سَنةِ ألفَينِ وعَشَرة.

والزُّودياكُ حَلْقةٌ من مَطَّاطٍ أسودَ لا ظَهْرَ لها، تَجلسُ على حافَتِها فيَصيرُ ظَهرُك إلى الماءِ وبَطنُك إلى عِشرينَ رَجُلاً يَرتَجِفون. ولا تُعطى سُترةَ نَجاة، إنَّما تُعطى كيساً من البِلاستيكِ لِلهاتِفِ والوَرَق.

ولم أخَفْ من الغَرَق. أقولُها وأنا أعلَمُ أنَّ أحَداً لن يُصَدِّقَني. وإنَّما جاءَني في وَسَطِ ذلك الماءِ شَيءٌ آخَرُ لم أنْسَه: أنِّي كُنتُ أنظُرُ إلى أضواءِ السَّاحِلِ الآخَرِ فأعرِفُ أنَّها أضواءُ مَدينةٍ لا تَعرِفُ باسمي ولا تَنتَظِرُني، ولا يَتغيَّرُ فيها شَيءٌ إن وَصَلتُ أو غَرِقت. وهذا هو الرُّعب: أن تَكونَ في مُنتَصَفِ البَحْرِ فتَفهَمَ أنَّكَ لا تُحدِثُ فَرْقاً في أيِّ ضِفَّةٍ من الضِّفَّتَين.

ثمَّ سَنتان هناك لا أحكيهما. بَرْدٌ يَدخُلُ العَظْمَ ولا يَدخُلُ الثِّياب، وثَمانيةُ رِجالٍ في غُرفة، وقُرحةٌ في المَعِدة جَعَلَتْني أتَقَيَّأُ الدَّمَ في مِرحاضٍ مَحَطَّةٍ ثَلاثَ مَرَّاتٍ في أُسبوعٍ واحِد، ومُفاوَضةٌ كُلَّ صَباحٍ على رَصيفٍ مع رَجُلٍ في شاحِنةٍ بَيضاءَ لا يَترُلُ منها.

وكُنتُ أمُرُّ على واجِهةِ دُكَّانٍ فيه فُستُقٌ ولا أشتَري.

فأيُّهما الغُربةُ، يا صاحِبَ القِراءة؟ أن تَكونَ في مَكانٍ لا يَعرِفُك، أو أن تَكونَ في مَكانٍ يَعرِفُك ويَعرِفُ أنَّك لا تَستَحِقُّ شَيئاً؟

* * *

ورَجَعتُ في سَنةِ ألفَينِ واثنتَيْ عَشْرة. ولا أقولُ لك أرُحِّلتُ أم رَجَعتُ باختياري. قُلتُ مَرَّةً هذا ومَرَّةً ذاك، وأنا نَفسي لا أعرِفُ؛ فإنَّ الرَّجُلَ المَكسورَ يَحتاجُ إلى رِوايةٍ يَحكيها لنَفسِه، ومن حَقِّه عليه أن يَدَعَ له رِوايتَه.

ورَجَعتُ أعتى. وصارَ لي بَعدَ سَنتَينِ كَراجٌ في زُقاقٍ خَلفيٍّ ودَرَّاجةٌ يابانيَّةٌ لا يَملِكُها في المدينةِ عَشَرة، وصارَ النَّاسُ يَفسَحونَ لي في الزُّقاقِ ويَضَعونَ ساعِدَهم على صُدورِهم.

ومات أبي في سَنةِ ألفَينِ وأربَعةَ عَشَر، فدَفَنتُه بجانِبِها، ودَفَعتُ ثَمَنَ القَبْرِ من حَيثُ تَعرِف.

ولم أبْكِ عليه كَثيراً، وقد عابوا عليَّ ذلك. وأنا أعرِفُ السَّبَبَ ولا أحسِبُه ما يَحسبونَه: ما كُنتُ أكرَهُه. إنَّما كُنتُ قد بَكَيتُه مَرَّةً واحِدةً في سَنةِ ألفَينِ وأنا على دَرَجِ المِرآبِ أنظُرُ إليه من وَرائِه، ولم يَبْقَ لي بَعدَ ذلك ما أبكيه.

* * *

وأقولُ لك الآنَ آخِرَ ما تَعَلَّمتُه، وهو أشَدُّه عليَّ.

أخطَرُ ما جَرى لي ليس السِّجْنَ ولا البَحْرَ ولا أنِّي صِرتُ يَتيماً من اثنَين. أخطَرُ ما جَرى لي أنِّي نَجَحت.

فلو كُنتُ فَشلتُ في هذا الطَّريقِ لَكانَ ذلك رَحمةً مِنَ اللهِ؛ كُنتُ سأُفلِسُ أو أُضرَبُ أو أُسلَبُ فأقولُ: هذا بابٌ مُغلَق، فأرجِعُ. وأمَّا أن أربَحَ فيه، وأن يَصيرَ لي كَراجٌ وهَيْبةٌ ومالٌ يَدخُلُ كُلَّ لَيلة، فذاك هو الذي أغلَقَ البابَ ورَمى المِفتاح. ومَن ذاقَ الثَّمَرةَ فلن تُقنِعَه مَوعِظةٌ بأنَّ الشَّجَرةَ خَبيثة.

ولم يُوقِفْني أحَد. هذا ما أُريدُ أن يُفهَم. ما وَقَفَ في وَجْهي أحَدٌ وَقْفةً جَدِّيَّةً مُكَلِّفة. قيلَ لي «ارجِعْ» مَرَّاتٍ، وقيلَتْ كما تُقالُ الكَلِمةُ لا كما يُقالُ الطَّلَب. وأنا لا أُحَمِّلُ أحَداً ذَنْبي،

فالذَّنْبُ ذَنْبي ويَدي هي التي فَعَلَت. غَيرَ أنِّي أقولُ شَيئاً لِمَن يَقرأُ ولَه أخٌ أو ابنُ عَمٍّ أو صاحِبٌ في مِثلِ حالي:

إنَّ الذي يَنزِلُ لا يَحتاجُ إلى نَصيحةٍ في المَساء. يَحتاجُ إلى رَجُلٍ يُغلِقُ عليه البابَ ويَدفَعُ ثَمَنَ إغلاقِه.

الفَصْلُ السَّابِعُ

رَقَمٌ طَلَبْتُهُ مَرَّةً

ولْنَرجِعْ إلى تلك اللَّيلة. فقد وَعَدتُك في أوَّلِ الكِتابِ ولا بُدَّ من الوَفاء.

خَرَجتُ من ذلك الزُّقاقِ الجانبيِّ في الثَّانية تَقريباً ورَجَعتُ إلى الدَّرْب. ودَخَلتُ الكَراجَ وأشعَلتُ المِصباحَ ولم أخلَعْ مِعطَفي، وجَلَستُ على كُرسيٍّ بِلاستيكيٍّ بينَ عُلَبِ الزَّيتِ وإطارٍ قَديم.

ولم أنتَبِهْ إلى ذلك في تلك اللَّيلة. انتَبَهتُ إليه بَعدَ شُهورٍ وأنا أُراجِعُ الأمرَ: أنِّي جَلَستُ في مرآبٍ على كُرسيٍّ بِلاستيكيٍّ بينَ عُلَبِ زَيتٍ وإطارٍ قَديم، في الهَيئةِ نَفسِها التي رَأيتُ أبي فيها قَبْلَ تِسعةَ عَشَرَ عاماً.

وفي الثَّالثةِ وأربَعِ دَقائقَ أخرَجتُ الهاتفَ وطَلَبتُ رَقَمَه.

* * *

وكان الخَطُّ الذي أُكَلِّمُ منه خَطّاً أجنَبيّاً، وهذا شَيءٌ أُحِبُّ أن أُبَيِّنَه لأنَّه أوقَعَه في الحَيرة. كُنتُ قد أبقَيتُ معي، من سَنَواتِ الغُربة، خَطّاً اشتَرَيتُه هناك ولم أتخَلَّ عنه؛ أبقَيتُه لأنَّ فيه رَقَمَ رَجُلٍ واحدٍ أحتاجُ إليه إذا أردتُ أن أعبُرَ ثانيةً، ولأنَّ من عاشَ ما عِشتُ يُحِبُّ أن يَكونَ له خَطٌّ لا يَعرِفُه أحَدٌ في هذه البِلاد.

فلَمَّا أضاءَ الرَّقَمُ في شاشَتِه رأى بِلاداً أُخرى. وأحسِبُه ظَنَّ أنِّي كُنتُ هناك. وأنا كُنتُ على ثَمانيةِ كيلومتراتٍ منه.

* * *

ورَنَّ.

رَنَّ رَنَّةً واحِدة. ثمَّ أغلَقتُ.

أنا أغلَقت. أنا. لم يُغلِقْ أحَدٌ في وَجْهي ولم يَتوانَ أحَدٌ عن الرَّدّ؛ وهو جالسٌ في ذلك البَهْوِ مُستَيقظٌ وعَينُه في الشَّاشة، وأنا أعرِفُ أنَّه كان مُستَيقظاً ولا أحتاجُ إلى أن يُخبِرَني أحَد. فليَرتَحْ قَلبُه: لم تَكُنْ تلك رَنَّةَ رَجُلٍ طَلَبَ النَّجدةَ فلم يُجَبْ. كانتْ رَنَّةَ رَجُلٍ نَدِمَ وهو يَضغَط.

ولِمَ أغلَقت؟

في تلك الثَّانية الواحدة، في المَسافة بينَ أن يَبدَأَ الجَرَسُ وأن يَنتَهي، سَمِعتُ نَفسي. سَمِعتُ الجُملةَ التي كُنتُ سأقولُها بالضَّبط: «تَعالَ معي إلى طَنجة». وسَمِعتُ وَقْعَها في أُذُنِ رَجُلٍ عاقِلٍ عِندَه أولادٌ وعَمَلٌ ومَوعِدٌ في الصَّباح، وسَمِعتُ جَوابَه المَعقولَ قَبْلَ أن يَنطِقَ به.

فأغلَقت.

ولم يَكُنْ ذلك كِبْراً، ولا كان عِتاباً له، ولا كُنتُ أمتَحِنُه. إنَّما كان أنِّي عَرَفتُ، وأنا في الرَّابعة والثَّلاثين، أنَّ ثَمَّةَ طَلَباتٍ إن طَلَبتَها خَسِرتَ الرَّجُلَ وإن سَكَتَ عنها خَسِرتَ الطَّلَب؛ والعاقِلُ يَخسَرُ الطَّلَب.

وقد خَسِرتُ الاثنَين. فأنا مَشَيتُ إلى طَنجةَ وَحدي، وخَسِرتُه هو أيضاً، إذ ما كَلَّمتُه بَعدَ تلك اللَّيلةِ أبَداً.

* * *

ومَشَيتُ في الخامسةِ صَباحاً.

ثَلاثُ مئةٍ وخَمسونَ كيلومتراً على دَرَّاجةٍ في مَطَرِ نُونبر، والحُذوةُ تُغَشَّى من الدَّاخِلِ فأرفَعُ القِناعَ قَليلاً فيَضرِبُ الماءُ في عَيني. وتَوَقَّفتُ مَرَّتَين: عِندَ مَحَطَّةِ وَقودٍ قَبْلَ القُنَيطِرة، وعِندَ طَريقٍ فَرعيٍّ بَعدَ العَرائِشِ لأنَّ يَدي اليُمنى تَوَقَّفَتْ عن الإحساس.

ووَصَلتُ طَنجةَ في الثَّانيةِ بَعدَ الزَّوال. وكان البَرْدُ هناك بَرْداً آخَرَ، فيه مِلحٌ وريحٌ تَأتي من المَضيقِ في اتِّجاهٍ واحِد.

وصَعِدتُ إلى المَرشان.

* * *

ووَجَدتُ الشَّارِعَ من غَيرِ أن أسألَ أحَداً.

عشرونَ سَنةً وأنا أحمِلُه في رَأسي: الشَّارِعُ يَنزِلُ قَليلاً ثمَّ يَنحَرِفُ إلى اليَمين، والبَيتُ الثَّالثُ بَعدَ المُنحَرَف، وله بابٌ قَديمٌ لَونُه بين الأخضَرِ والأزرَق وفي أعلاه قَوْسٌ من الزَّليج، وفي الطَّابَقِ الأوَّلِ ثَلاثُ نَوافذَ لا أربَع. وشَجَرةُ تينٍ في الصَّحْنِ غَرَسَها جَدُّها؛ ورَأيتُ منها فَرْعاً يَخرُجُ فَوقَ السُّورِ ولم أكُنْ أعرِفُ أنَّ التِّينَ يَفعَلُ هذا.

كُلُّ ذلك من رَسائلَ بخَطِّ يَدِ امرأةٍ في العِشرين، حَفِظتُها حِفظاً كما تُحفَظُ الأرقامُ في الزَّنازين.

ووَقَفتُ في الجِهةِ المُقابِلةِ، في ظِلِّ جِدار، والدَّرَّاجةُ على بُعدِ شارِعٍ لأنَّ لها صَوتاً.

ووَقَفتُ أربَعينَ دَقيقة.

وفي الطَّابَقِ الأوَّلِ كان ضَوءٌ. وعَبرَ خَلْفَ الزُّجاجِ المُغَشَّى ظِلٌّ مَرَّتَين؛ لا أدري أهُوَ لها أم لغَيرِها. ونَزَلَ من البَيتِ وَلَدٌ في الثَّالثةَ عشْرةَ أو نَحوِها بحَقيبةٍ على ظَهْرِه وأسرَعَ إلى أسفَلِ الشَّارِع.

ولم أطرُقْ.

* * *

ولا أعرِفُ إلى اليَومِ بأيِّ وَجْهٍ أشرَحُ لك هذا، ولا أُحِبُّ أن أشرَحَه بكَلامٍ جَميل.

الحَقُّ أنِّي عَرَفتُ، وأنا واقِفٌ هناك والماءُ في حِذائي، أنِّي لا أملكُ ما أقول.

فماذا كُنتُ سأقولُ لها؟ أقولُ: أنا طه. وتَخرُجُ امرأةٌ في السَّادسة والثَّلاثينَ في ثَوبِ البَيتِ ووَرَاءَها طِفلةٌ تَسألُ من بالباب، وأقولُ لها الجُملةَ التي حَضَّرتُها في زَنزانةِ سَنةَ ألفَين وسَبعة. وتَبقى هي بَعدَ ذلك في بَيتِها تَحملُ ما حَمَلتُه أنا إليها. ثمَّ أرجِعُ أنا إلى دَرَّاجَتي وأمضي من البِلاد، وتَبقى هي.

فإنَّ الرَّجُلَ الذي يَطرُقُ باباً لِيُريحَ صَدْرَه ثمَّ يَمضي لم يَطرُقْه من أجلِها. يَطرُقُه من أجلِه. وأنا كُنتُ قد فَعَلتُ هذا مَرَّةً في عُمري وكَلَّفَني أُمَّاً ماتَتْ تَدعو لي بالحَلال. فلم أُعِدْها.

وأمَّا الجُملةُ التي حَضَّرتُها عِشرينَ سَنةً فأنا أكتُبُها لك الآنَ، إذ لم يَبْقَ لها مَوضِعٌ آخَر:

«أنا ما كُنتُ أعمَلُ في الحَديد».

خَمسُ كَلِمات. قالتْ لي هي خَمساً في مَقهًى على السَّاحِلِ ولم أُجبْها، فحَضَّرتُ لها خَمساً ولم أقُلْها. وهذا كُلُّ ما جَرى بَيني وبينَ تلك المَرأةِ في ستٍّ وعِشرينَ سَنة: عَشْرُ كَلِماتٍ قيلَتْ نِصفُها.

* * *

ثمَّ رَجَعتُ وبِعْتُ الدَّرَّاجةَ في ذلك الأُسبوع، وخَرَجتُ من البِلاد. ولا أزيدُ على هذا حَرْفاً.

وبَعدَ ذلك بشَهرٍ ونِصفٍ، وأنا في مَكانٍ لا أُسَمِّيه، رَنَّ الخَطُّ الأجنَبِيُّ في اللَّيل.

رَقَمٌ مَغربِيٌّ لا أعرِفُه.

وتَرَكتُه يَرِنُّ. تَرَكتُه إلى آخِرِه لأنِّي كُنتُ في حالٍ لا أُحِبُّ أن أُكَلِّمَ منها أحَداً من هناك، ولأنَّ كُلَّ رَقَمٍ مَغرِبِيٍّ مَجهولٍ في ذلك الوَقتِ كان عِندي مَعناه واحِداً من اثنَين: دَيْنٌ أو خَبَرُ مَوت.

ثمَّ سَكَت.

ثمَّ نَظَرتُ إلى الشَّاشةِ ثانيَةً ونَظَرتُ في الأرقامِ الأولى.

وكانتْ من طَنجة.

* * *

وبَقيتُ أُقَلِّبُ ذلك ثَلاثةَ أشهُر: أهيَ؟ وكيف عَرَفَتِ الرَّقَم؟ ولَعَلَّه رَقَمٌ آخَرُ ومَصادَفةٌ ومَدينةٌ فيها مليونُ إنسان.

ولم أطلُبْه. ولن أطلُبَه.

وهذا آخِرُ شَيءٍ أفعَلُه من أجلِها، وأحسِبُه أوَّلَ شَيءٍ أفعَلُه من أجلِها حَقّاً في ستٍّ وعِشرينَ سَنة.

فهذه حكايتي، وقد قُلتُها كما وَقَعَتْ ولم أُجَمِّلْ منها شَيئاً ولم أجعَلْ نَفسي بَطَلاً، وهذا شَرطٌ شَرَطتُه على غَيري فحَقٌّ عليَّ أن أشتَرِطَه على نَفسي.

وأنا جالسٌ الآنَ إلى طاوِلةٍ من خَشَبٍ أمامَ نافذةٍ لا أُحبُّ أن أصفَها لك، والهَواءُ فيه ملحٌ يَأكُلُ حَوافَّ الوَرَق، وفي الطَّابَقِ الأسفَلِ رَجُلٌ يَتكَلَّمُ لُغةً لا أعرِفُ منها غَيرَ أربَعِ كَلِماتٍ إحداها اسمي.

وهم يُنادونَني هنا باسمي. يُخطِئونَ في آخِرِ حَرْفٍ منه فيَصيرُ شَيئاً آخَرَ، ومع ذلك فإنَّه اسمي. وما يَعرِفُ أحَدٌ في هذا المَكانِ أنَّ لي اسماً ثانياً، ولا أنَّ في مَدينةٍ على السَّاحِلِ الأطلسيِّ أزِقَّةً كان النَّاسُ يَفسَحونَ فيها لرَجُلٍ يُسَمُّونَه باسمِ أفعى.

وهذا أحسَنُ ما بَلَغتُ إليه في أربَعينَ سَنة.

اسمي طه. طه فَقَط.

قُلتُ لك في أوَّلِ الكتاب إنَّ في الحكاية ثَلاثةَ أشياءَ لا يَعرِفُها أحَدٌ غَيري، وإنِّي أكتُبُ لأُسَلِّمَ أمانةً لا لأُبَرِّئَ نَفسي. وقد سَلَّمتُها: أنِّي كُنتُ تَحتَ مَظَلَّة ذلك المَحَلِّ ولم أدخُل، وأنِّي رَأيتُها وهي تُسَلِّمُ الوَرَقةَ ويَدُها تَرتَجِف، وأنَّ الذي أغلَقَ الخَطَّ في الثَّالثة وأربَعِ دَقائقَ هو أنا.

وأعرِفُ أنَّكَ أغلَقتَ الصَّفحةَ ومَعك أسئلةٌ تُريدُ لها جَواباً. أين أنا الآنَ؟ وأيُّ بَحْرٍ أمامَ نافذتي؟ وأيُّ بابٍ ذاك الذي لا يُفتَحُ من الدَّاخِل؟ وهل خَرَجتُ منه أو سأخرُج؟ وهل كان ذلك الرَّقَمُ رَقَمَها؟ وهل عَلِمَتْ هي بشَيءٍ ممَّا كَتَبتُ؟ وهل سَمِعَ صاحِبي، هو الذي أعرِفُ أنَّه ما زالَ يُغَنِّي، أنَّ الدَّرَّاجةَ التي سَمِعَها في ذلك الشَّارِعِ لم تَكُنْ وَهْماً؟

وأنا لا أُجيبُك عن واحدٍ منها. وسَبَبُ ذلك ليس المُراوَغة؛ إنَّما هو أنَّ مَن كان في مِثلِ مَوضِعي تَعَلَّمَ أنَّ أخطَرَ ما يَملِكُه الإنسانُ هو عُنوانُه.

غَيرَ أنِّي أترُكُ عِندَكَ ثَلاثةَ أشياءَ وأمضي.

أمَّا الأوَّلُ فأنِّي لا أطلُبُ من أحَدٍ أن يُسامِحَني. فأنا باعَدتُ بَينَ أُسَرٍ لا أعرِفُ أسماءَها، وأمرَضتُ بُيوتاً لم أدخُلْها، وأكَلتُ من ذلك ثَمانيَ سَنَوات. والمُسامَحةُ في هذا البابِ ليستْ لك ولا لي، وإنَّما هي لِمَن لا أعرِفُ عَدَدَهم، وأنا لا أملكُ أن أطلُبَها ممَّن لا أعرِفُه. فأمري إلى اللهِ وَحدَه، لا إلى القُرَّاء.

وأمَّا الثَّاني فالاسم. إن مَضَيتُ في هذا المَكان ووَجَدَ أحَدٌ هذا الوَرَقَ، فليَكتُبْ على الحَجَرِ كَلمةً واحدة: طه. لا غَيرَها. فإنَّ الاسمَ الذي سَمَّاني به أبي كان أُمنيَةً، والاسمَ الذي سَمَّاني به الزُّقاقُ كان شَهادةً؛ وقد قَضَيتُ أربَعينَ سَنةً أُحَقِّقُ الشَّهادةَ وأُخَيِّبُ الأُمنيَة. وليس لي اليَومَ ما أُصَحِّحُ به ذلك إلَّا حَجَرٌ لم يُنصَبْ بَعد.

وأمَّا الثَّالثُ فهو لِوَلَدٍ واحِدٍ لا أعرِفُ اسمَه.

فإنِّي أعرِفُ أنَّ في تلك الزَّاوية، عندَ الدُّكَّان في أوَّلِ الزُّقاق، واقفاً الآنَ وَلَدٌ في السَّابعةَ عشْرةَ عليه قُبَّعةٌ سَوداءُ ويُهَزِّزُ رُكبتَه وينتَظِر. وأعرِفُ هذا لأنَّه لم يَخلُ ذلك المَوضِعُ من واحدٍ كهذا يَوماً واحداً منذ أربَعينَ سَنة، وقد كُنتُ أنا فيه، وكان قَبْلي غَيري.

فإن قَرَأَ هذا، أو قُرِئَ له، فلْيَعلَمْ أنِّي لن أقولَ له «اتَّقِ الله» ولا «اعتَبِرْ بي»، فإنَّ هذا الكَلامَ قيلَ لي مِئاتِ المَرَّاتِ وما دَخَلَ أُذُني مَرَّةً، ومَن كان في مَوضعِه لا يَسمَعُ مَوعِظة.

وإنَّما أقولُ له جُملةً واحدةً عَمَلِيَّةً تَنفَعُه: انظُرْ إلى الرَّجُلِ الذي أمامَكَ بعَشْرِ سَنَوات، الذي يَفسَحُ له النَّاسُ في الزُّقاقِ وتُهابُ دَرَّاجَتُه. ثمَّ اسألْ أهلَ الحَيِّ عن الذي كان أمامَه بعَشْرِ سَنَواتٍ هو أيضاً، والذي كان أمامَ ذاك. اسألْ عن أربَعةٍ فقط، بأسمائِهم، وانظُرْ أينَ هم اليَوم.

فإن وَجَدتَ واحداً منهم في بَيتٍ ومَعه أولادُه وأبواه يَدعوان له، فامضِ في طَريقك وقد صَدَقَ ظَنُّك. وإن وَجَدتَهم في المَواضِعِ التي ستَجِدُهم فيها، فاعلَمْ أنَّ الحِسابَ مَكتوبٌ قَبْلَ أن تَدخُل، وأنَّ المَحضَرَ جاهِزٌ، وأنَّكَ لن تَكونَ أنتَ الاستِثناءَ الأوَّلَ في أربَعينَ سَنة.

وأنا كُنتُ أحسِبُ نَفسي الاستِثناء. وهذا كُلُّ ما في الأمر.

الحسابات الرسمية للكاتب


El Mllouki Mohamed


elmllouki_off


@ELMLLOUKI_OFF

رواية

حلم الكبرا

الجزء الثالث

